

واجبنا نحو أولادنا

للدكتور عبد العزيز عبد المجيد

أتحدث اليكم الليلة — معشر الآباء والمهات — في موضوع يهمكم جميعا ، لأنه يتصل بأبنائكم وبناتكم ، وأنا بحدسي حسدا أقترح أنكم جميعا آباء وأمهات ، إما بالفعل وإما بالقوة فن ليس له اليوم أولاد سيصير يوما ما ذا أولاد ، وقد جرت سنة الطبيعة بمجرد أن يرزق الوالدان طفلا أن ينتقل اهتمامهما من أنفسهما الى الطفل ، وأن يؤثره على أنفسهما ولو كان بهما خصاصة ، وهي سنة حكيمة ذلك لأن الطفل — لما هو عليه من ضعف في الجسم وقصور في العقل — يحتاج لمن يرعاه ، ويشرف عليه ، ويحوطه بالعناية الضرورية للنمو السليم ، فهو — والحالة هذه — عيل لأنه عالة على والديه ، من أجل هذا منح الله الوالدين بالنعطة غريزة تسمى ” غريزة الوالدية ” وهي تلك التي تدفع بهما الى العطف والحنو على الطفل ، وتديرهما يحتاج اليه في حياة طفولته من الطعام والملبس والمأوى والحماية ، ولو حرم الوالدان هذه الغريزة ، ولم تغلق فيهما لما كان لها هذا الحافظ القوي على تفضيحة رغباتهما في سبيل إراحة الطفل ومعادته .

والانسان أرقى أنواع الحيوان ، لما منحه من العقل المدبر الجبار ، الذي استطاع به أن يسخر لمصلحته ما حوله من القوى الطبيعية ، ولما كان الانسان أرقى أنواع الحيوان كانت طفولته أطول أنواع الطفولة ، إذ لا بد له — الى جانب استكمال نمو العقل الطبيعي من أن يرث تراث الجنس البشري ، ومعارفه ، وحضارته ، بالتعليم والتجربة . فالجنس البشري تقاليد وهدايات ، تقاليد اجتماعية ، ودينية ، ونظم مدنية ، وعادات معاشية في الأكل والملبس والتوم والحديث ولو كان أطفالا كصغار الدجاج أو الفئران ، أو الأراب مثلا ، لما احتاجوا الى طفولة طويلة المدى ، لأن حاجات صغار هذه الحيوانات محدودة ولم تمنح من العقل إلا بقدر هذه الحاجات ، فكان طبيعيا أن تقصر مدة طفولتها .

والآباء والأمهات عادة لا يستطيعون وحدهم القيام على تربية أطفالهم طول عهد الطفولة هذا العهد الذي يرى بعض علماء التربية ، انه يمتد حتى سن الرجولة أى حوالي العشرين حين يستطيع الفرد الاعتماد على نفسه . من أجل هذا كان لا بد أن يعاون الآباء قوم لهم ذراية بوظيفة ” الوالدية ” . وهي تربية الأطفال . وهؤلاء المعاونون للآباء ، قد اتفقا على أن نسيمهم : المعلمين أو المدرسين أو المرين . ولهم أما كن يذهب إليها الأطفال لاستكمال تربيتهم . وهي المدارس .

والذى يهتنا الليلة هو واجب الآباء والأمهات نحو أطفالهم قبل الذهاب الى المدرسة وقد يبدو غريبا أن أتحدث الى الوالدين في واجبهما نحو أطفالهما ، فإهما - في هذا الصدد - بحاجة الى ناصح أو شفيق. ولكن التربية الحديثة ترى أن السنوات الأولى من حياة الطفل وهى التى تسبق دخوله المدرسة ، ذات خطر عظيم فى مستقبل حياته ، من حيث تكوين العادات الحسنة أو السيئة ، ووضع الأسس التى يبنى عليها نموه العقلى ، والجسمى وما لم ينل الآباء والأمهات نصيبا من "الثقافة الوالدية" كانت تربية الطفل فى سنواته الأولى ، متروكة للعاطفة العشوائية .

إن نمو الطفل الجسمى فى السنوات الأولى من حياته ، أسرع منه فى أية مرحلة أخرى ، ولذلك كان فى حاجة الى رعاية دقيقة حتى يستمر النمو طبيعيا . وذلك لا يتأتى الا بإعطائه من الغذاء المحتوى على المواد الضرورية لتكوينه كاللبن والزبد واللحم والبيض والحب والخضر والفواكه ، وليس المراد أن يعنى بالكلم دون النوع . فكثير من الأطفال يملأون بطونهم بالمواد النشوية ولا ينالون من اللبن والخضر والفواكه الا القليل مع حاجة أجسامهم اليها ، ثم هم لا يعرفون مواعيد لوجبات الطعام ، فكما خيل اليهم إحساس بالجوع طلبوا الطعام ، وسرعان ما تلبى الأم الدعوة ، فيختل نظام الهضم ، وينتاب الطفل ما يتنابه من إمساك أو إسهال أو حمى . وما كان أغناه عن هذا كله لو انتظمت مواعيد الطعام .

والطفل يحتاج الى ساعات معاومة الى النوم والراحة ، فى مكان هادئ نظيف ، والى أن تنظم مواعيد نومه ، ولكنا بالأسف نجد الأطفال متروكين للظروف ينامون أحيانا مبكرين ، وأحيانا متأخرين ويستيقظون كذلك ، وكما يؤلمنى أن أرى الأطفال مع ذويهم فى دور السينما ساعات من الليل هم أحوج فيها الى النوم .

والطفل يحتاج الى أشعة الشمس وحرارتها والهواء الطلق ، ولكن بعض الوالدين لا يدركون هذه الحاجة فيميلونها وبذلك يحرم الأطفال هذه النعم الرخية ، وكثير منهم - ولا سيما فى المدن - يعيشون فى حجرات مظلمة مقلقة رطبة ، فتعتل صحتهم ويتناهبهم فقر الدم والكساح .

والطفل بحاجة الى النظافة ، نظافة الجسم والثوب ، والفراش ، حتى لا تجذب الأوساخ إليها ميكروبات الأمراض والتفيليات ، الضارة كالقمل والذباب ، وطفيل الجرب وغيرها وما من شك فى أن بعض الوالدين يهمل نظافة الأطفال تساهلا وجهلا .

هذا من الناحية الجسمية ، أما الناحية الحقيقية والاجتماعية ، فالطفل سريع التقليد جيدة فهو يرى ويسمع ويلبس ويشم ، ويتصور ويتخيل ، وهو يحاول مع هذا أن يحاكي أولئك الذين يحيطون به من الكبار ، ومن هم في سنه ، فيحاكيهم في لهجتهم وفي ألفاظهم وفي سلوكهم مع غيرهم لأنه يعتبرهم مثله العليا . ولذلك يجب علينا معشر الوالدين أن نكون حريصين فيما نقول وما تفعل أمام أطفالنا ، فلا نستعمل من الألفاظ النابية القبيح ، ولا تأتي من الأفعال الشائن المزرى .

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

ولما كان رفاق الطفل يؤثرون في سلوكه ، لأنه ميال لمحاكاتهم ، كان علينا أن نختار صالح الرفاق ، وكثيرا ما ندهش لسماع أطفالنا يفوهون بعبارات قبيحة لم يسمعوها في وسطهم العائلي ويأتون بأعمال شائنة لم يروها من أفراد أسرهم . ولكن لو تبينا أصل كل هذا لوجدناه في رفاق السوء ، وقد يقال أنه من الصعب أن يفصل الطفل عن أبناء حاربه وجيرانه . ولكن هذا لا يمنع الآباء من أن يحاولوا اختيار الرفاق ، وأن يمهّدوا لخلق الصداقات بين أطفالهم ومن يختارون لهم من الأطفال كريمة السلوك . على أنه من الواجب أن لا تترك الكلمة النابية أو الفعل الشائنة تمر من غير استهجان واستنكار ، ظنا منا أن الطفل ما زال طفلا ، لأن سكوتنا على ما لا نرضاه من سلوك الطفل إقرارا منا لعمله ، وهو ما يدفعه لتكراره . وهنا يرى المربون أن من خير وسائل التوجيه والاصلاح الايماء . وأصله ميل فطري عند الطفل - والكبير أيضا - يجمع له يثأر بأفكار غيره واعتقاداته ويقبلها من غير معارضة ، ولو لم يكن لها أساس من العقل والمنطق والطفل سريع التأثر بالايحاء فمثلا يستطيع الوالد - أو الوالدة - أن يؤثر فيه اذا ما أتى شيئا منكرا بقوله "أنا غير راض عن هذا" أو "هذا لا يعجبني" أو "هذا لا يليق بك" أو "أنا لأحب أن أفعل هذا" ، وكما أن الايماء وسيلة للاصلاح ، قد يكون كذلك وسيلة للباس وأضعاف المهمة والفشل ، فن الآباء من إذا أخطأ أمامه الطفل وجه اليه عبارات التثبيط ، كأن يقول له "انت دائما خائب" "أنا حارف عمرك ما تنتجج" فهذا النوع من الايماء يصدم الطموح عند الطفل ويوصد أمامه باب الأمل ، ولقد كان جان جاك روسو المصلح الاجتماعي الفرنسي يتخذ مع اميل - الطفل الخيالي الذي أراد تربيته - طريقة المقارنة الايمائية ، فيقول له : أنت اليوم خير منك بالأمس . أو يقول له "ما كنت أتوقع أن تكون اليوم أسوأ مما كنت عليه بالأمس" وهذه الطريقة يشمر الطفل باحترام نفسه ورغبته في استردائه ما فرط منه .

ومما يؤخذ على الآباء والأمهات بلوثهم إلى تخويف الطفل ، بالأشياء الخيالية أو الأصوات المزعجة كوسيلة لاسكاته وتقبله أراهم ، وهذا خطأ كبير ، يظل أثره مستمرا في حياة الطفل حتى في سن الرجولة ، فمن الأمهات من تخوف طفلها ، بالعسكري

والجرامى والغريث وأبو رجل مسلوخة والقول المخنفي في الظلام ، وبهذا تنمو فكرة الحوف عند الطفل حتى تصير حقيقة مجسمة . نعم قد يتغلب عليها عند ما يكبر ويتجاوز من الطفولة ولكن هذا التغلب هو نوع من الكبت والمثبرات ، لم تنح نهائيا ، بل تظل في العقل الباطن ويروى لنا أحد علماء التحليل النفسى أن ضابطا في الجيش كان يذعر من وجوده في الخندق أثناء الحرب ويرتعد خوفا وأنه هرب منه مرة إلى خط القتال الأمامى حيث الخطر المباشر فلما فحست حالته تبين أن والدته كانت تعاقبه في طفولته ببجسه في حجرة مظلمة ضيقة ، وأن الحادث قد نسى ، ولكن ظل في العقل الباطن .

وقد اختلف علماء التربية في أهمها خير ، أن يؤخذ الأطفال في السنوات الأولى إلى مدارس الحضانة ، ومدارس الأطفال ليربوا تحت إشراف مرشدات متخصصات ، أو أن يتركوا في رعاية الأمرة والأمهات الجاهلة ، حيث العطف والحنان الطبيعى وخلاصة حاتين الوجهين أنه اذا لم تكن الأسرة خبيرة بشؤون الطفولة وقادرة على تربية الطفل تربية علمية صحيحة فالأولى أن يرسل الى المحاضن ومدارس الأطفال ، وما أكثر هذه المؤسسات في أوروبا .

وبعد — سيداتى وسادى ، فهذه كلمة موجزة عن واجبنا نحو أولادنا الذين قال فيهم الشاعر العربى :

وانما أولادنا بيننا
لو هبت الريح طلى بعضهم
أكادنا تمشى على الأرض
لامتنعت عيني من التمض

عبد العزيز عبد المجيد
المدرس بمعهد التربية العالى